9 نيسان.. ذروة الفنتازيا ونهايتها

سنــــة علــى زوال كابــــوس

■ ماذا لو لم تحقق أمريكا كل ما وعدتنا به من أحلام.. هل نجلس متباكين؟

■ علينا أن لا نثأر من بعضنا كنوع من الحساب المتأخر مع نظام ولى وإلى الأبد.

■ الصورة البديلة لصدام ليست أمريكا بل نحن وواجباتنا تجاه أنفسنا والدفاع عن حريتنا.

كتابة/أحمد السعداوي

في أواخر التسعينيات عرض تلفزيون بغداد برنامجاً أسبانياً مترجماً يستذكر مرحلة فرانكو السوداء في تاريخ أسبانيا الحديث، وخصص الجزء الأخير من البرنامج لاستذكارات الناس عن ردة فعلهم وانطباعاتهم الأولى لحظة سماعهم خبر وفاة فرانكو.. كل الذين التقى بهم مقدم البرنامج أجمعوا على أنهم لم يصدقوا حينها الخبر، ولم يستطيعوا التكيف مع حقيقة زوال (ديكتاتورهم) العريق. كيف ستكون الحياة بعد فرانكو؟ كيف ستكون أسبانيا؟ ما الذي سيحدث من كوارث كان يخمرها

(ما الذي سيحدث بعد زوال صدام؟) تساءلت بدوري وأنا أتخيل (صدام) وهو يلحق برفيقه فرانكو إلى طال الأخير؟

سؤال لم يكن يملك (المصداقية) حينها، والأسبان أناس محظوظون لأنهم يتكلمون الآن بسعادة عن كابوس لم يعد موجوداً فوقهم. الكابوس وسعادة الكلام بحرية، شيئان متضادان لا أملك موهبة جمعهما معاً. كذلك لم أكن مهيئاً- كما في المثال الأسباني تماماً- لفكرة أن صدام لديه القابلية والاستعداد للزوال، دون أن يزول معه كل شيء تقريباً.

لا أحد، حسب علمي، كان في نهاية التسعينيات يفكر طويلاً على نحو جدي بإمكانية زوال صدام، كان التفكير الغالب على الشارع العراقي هو قضية العقوبات الاقتصادية.. (متى يزول الحصار؟) سؤال تضخم على امتداد عقد التسعينيات ليغدو كابوساً مضافاً لكابوس الديكتاتورية. اليأس، الذي تجاوز مرحلة الكلام، بإمكانية زوال النظام يتجسد أحياناً على شكل نكات، كتلك النكتة الشهيرة عن ذلك المواطن المسكين الذي أخذ نوماً ثقيلاً، فاستغرق في السبات (25) سنة وبعد أن استيقظ وفتح التلفزيون.. شاهد الناس يتظاهرون فرحين وهم يهتفون (هلا بيك هلا وبجيتك حلا)، فيصدم لمعرفته أن النظام لم ينهر بعد، وأن حفيد (القائد الضرورة) ما زال يقود المسيرة!

عصف اللامعقول

(الفردوس) ممنوع من التحقق في العراق بسبب العقوبات الاقتصادية، هكذا يروج كان النظام لعلاقة تبدو تعمية على المصيبة الأكبر. واستغرق الناس معاً أمل زوال العقوبات الدولية حتى تكلس لديهم كل شيء.. الأمل.. اليأس.. المستقبل.. السعادة.. الطمأنينة. واليوم.. غطى دوي سقوط النظام على دراما العقوبات الاقتصادية.. فلم يتحسس الناس ذلك الفرح الذي خبأوه لهذا اليوم.. باللامعقول نفسه.. وقد عصف بكل شيء.

هنا يعود البرنامج الأسباني ليصور وجوه الناس ويسألهم.. فيقرأ عدم التصديق علامة فارقة في كل الوجوه. وذلك الفرح المعادل لمثل هذا اليوم يبدو ذابلاً وفاقداً القدرة على الانطلاق كـ(فرح)، فانطلق عوضاً عن ذلك بصور أخرى، قد تبدو بعيدة عن الصور التي تجسد بها الفرح الأسباني بوفاة فرانكو. كانت كمية (الابتهاج) المشوه تعبر بوضوح عن الفرق الكبير بين ديكتاتورية صدام.. وديكتاتورية أسلافه العتاة.. الذين تقزموا أمام صورته المتوحشة، وبدوا أقرب إلى صور ناقصة له.

هذا على الأقل، ما يراه الرائي الآن، وهو يسعى لأخذ صورة عن هذا الكائن الذي اختصر أنفاس بلد بأكمله في قبضته.

الصورة

هناك مشكلة انبثقت لدى العراقيين بعد سقوط النظام: العراقيون هنا والعراقيون في المهاجر والمنافي.. إنها مشكلة تتعلق بالصورة. العراقيون يريدون نقل صورة عن أنفسهم للعالم، يريدون تصوير مأساتهم حين كانوا تحت وطأة النظام، ويشعرون بأنهم يفشلون في ذلك. العراقيون يشعرون بعزلة عن محيطهم العربي، لأن هذا المحيط لا يكترث كثيراً للصورة المعروضة، وبدلاً من ذلك يصدر لهم الصورة التي يراها هو فحسب.

ولأن الآخر لا يريد الاعتراف بنا كضحايا للنظام السابق، علينا البقاء في صورة الضحايا أطول فترة ممكنة.. عل الآخر يثوب إلى رشده ويعترف بالحقيقة المرة.

أثناء ذلك تقلب العراقيون على كل (القيم) العربية التي كان روج لها النظام، وبرز إلى السطح الشعار (العراق أولاً). بل أن هناك من دعا صراحة إلى نبذ القضية الفلسطينية، وغسل أيدي العراقيين منها، لأنها وبكل مضاعفاتها، لم تجلب للعراقيين غير الخراب والدمار ونزف الأموال والأنفس.

المحرر/المحتل

أثناء ذلك انتقل العراقيون من مرحلة السكون والكمون الطويلة إلى مرحلة الفوضى. من الكابوس إلى الدوار، من الصورة الواحدة إلى تكاثر الصور الكمي والنوعي، إن لم يكن طغيان الكمي على النوعي.

انتقل الحديث في المقاهي والحافلات والجامعات والبيوت والشوارع من الموضوع الواحد المكرر إلى الموضوعات المتعددة.. أو إلى حد التكاثر غير الفاعل (اللاموضوع)، وانتقل السلوك الاجتماعي والخطاب التبريري المرافق له.. من شريعة مسارقة اللص الكبير الأوحد.. إلى شريعة ثأر الضحايا الانفجاري. الفنتازيا التي كانت تحكم الواقع العراقي اكتملت بمشهد المحرر/المحتل والعقل الذي تعايش طويلاً مع صور الشرطي/المجرم، والطبيب/القاتل. والعلم/الجهل والقاضي/الغريم والصحافة/ السخافة. والموظف/الشحاذ أو الفنتازية.. ستيقظ فجأة من استغراقه الفنتازي الشيزوفريني ليجد أن عليه أن يختار أحد حدي صورة المشهد الختامي. فأما أن يكون مع المحتل أو مع المحرر. أو يكون معهما معاً أو ضدهما معاً.

الراعي والأغنام

كان ينظر لنا على أننا أغنام الراعي، ولم نستيقظ حتى الآن من أسطورة الراعي، من أسطورة محقق الأماني، لا نريد أن نصدق أن علينا القبول بالواقع كما هو، كمرحلة أولى للتغيير. لم يتغير الأمر كثيراً، أمريكا الآن مكان صدام حسين، صدام الذي نشتمه، نقل هذه المهمة لأمريكا. ما الذي يفعله الرئيس إذن؟ إنه يحقق أماني الشعب، نريد شوارع نظيفة سالكة، ورواتب، وأمناً وضبطاً وربطاً، وأسواقاً عامرة، وبيوتاً حديثة وسيارات رخيصة.. نريد كل ما لم نحصل عليه خلال 35 عاماً الآن وعلى الفور. فهذه هي الطريقة المتوفرة لدينا للثأر الفعلي والكامل من صدام حسين. وبما أن أمريكا لم تفعل ذلك حتى الآن فهي ألعن من صدام إذن.

ولكن ماذا لو لم تحقق أمريكا كل ما وعدتنا به من أحلام فردوسية؟ إلى أين نذهب بحالنا؟

الصورة البديلة لصدام حسين ليست أمريكا، وإنما ببساطة نحن. ما لم يفعله صدام من خير للعراق علينا أن نفعله نحن وكفانا تعلقاً بقوة منفصلة وغريبة عنا.. اسمها الرئيس، أو أمريكا- أو أي شيء يعفينا من واجباتنا تجاه أنفسنا.

وعلينا كسر عصا الراعي وكسر هذه الثنائية إلى الأبد لأننا لسنا أغناماً أصلاً.

نون الجماعة

سنة مرت على زوال النظام، وأشعر أنها أثمن سنة وأثقل سنة في ميزان السنوات العراقي، لنتذكر جيداً، إننا كنا مستعدين تماماً لتضحيات أكبر، من أجل زوال النظام، لنتذكر تلك الخسارات جيداً، لنتذكر تلك الخسارات المؤلمة التي لم تحدث لحسن الحظ من أجل هذا الحلم المستحيل.. الحرية.

لنتذكر، أو فلننتبه جيداً للحقيقة التالية: إن صراعنا مع الاحتلال الآن- بالوسائل السياسية- يشاركنا فيه العالم أجمع، لكننا كنا نفتقد السند والدعم، حتى من الأقرب للقربين في صراعنا مع الديكتاتورية.

لنتذكر قادرون الآن على الاحتجاج على مظالم الاحتلال- وهي كثيرة- لكن احتجاجنا على مظالم الديكتاتورية كان يتحول إلى مغص مؤلم قبل أن يصل إلى الحنجرة.

لنتذكر أن نظام صدام حسين زال حقاً، وعلينا أن لا نبني مواقفنا الحالية استناداً إليه، علينا أن لا نثأر من بعضنا كنوع من الحساب المتأخر مع نظام ولى إلى الأبد.

لنتذكر أننا شركاء في الإنسانية، الألماني والفرنسي والياباني وغيرهم لا يختلفون عنا في شيء، وهم لا يجترحون المعجزات، علينا أن ننصت لنجاحات الآخرين ونتعلم.. علينا أن نتعلم حقاً، وأن لا نمثل دور الأساتذة منذ البداية.

حتى عدوي.. علي أن أتعلم منه سر القوة حتى أتمكن من الانتصار عليه.. كان كل شيء يبرر اليأس، علينا الآن أن نعيد احترامنا للحلم..

قوة اليأس تتحول دون أن ندري إلى رفض للآخر.. وإلى عنف وإرهاب.. أما قوة الحلم فهي التي تجعلنا نصدق زوال الديكتاتورية. المذهول نقص في الثقة بقوة الحلم. يجب أن نثق بحلمنا (بنون الجماعة!) وأن الشياطين لن تحققه لنا ولا الملائكة.

متفائلون ومتشائمون: انطباعات أهالي ديالى بعد سنة من انهيار التمثال

كنا نترقب شيئاً ما، نأمل أن يحدث. وننتظر أحداً ما، يمكن أن يجيء، ونردد في سرنا أحياناً، يائسين، مع شخصيتي مسرحية "في انتظار غودو، لبيكيت، (لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء).. بيد أن شيئاً مهولاً قد حدث، وأن هناك من جاء، وتغير العالم برجة عنيفة لا بأنين خافت، على عكس نبوءة ت. س. اليوت. فوجدنا أنفسنا، بعد أن غادرنا منطقة الكابوس، على تخوم مسافات من ضباب بات ينقشع ببطء أليم، لكنه ينقشع، لا ريب، ويختلج النور. سنة واحدة مرت منذ سقط التمثال.. واليوم، بعد انقضاء هذه السنة بآمالها كلها وآلامها.. بعذاباتها وإشراقاتها.. بحلوها ومرها ما هي انطباعات الناس، في أرض البرتقال "ديالى" عما حصل؟

بعقوبة/ المدى

من يدري؟

-لا شيء على ما يرام، ويبدو أن العالم قد فقد صوابه.. لا أحد يدري ما جرى وما يجري، وعلى الرغم من تدفق الأخبار عبر الفضائيات، وعلى صفحات الصحف، أجد الوضع ملتبساً، ومن ضد من. من يقتل الأبرياء؟ ومن يواجه الأمريكان؟ والله لا أدري؟.. قل لي، هل هناك من يدري؟ هل أنت تدري؟

هذا ما تقوله السيدة آمنة عبد الله- بكالوريوس لغة إنكليزية- وهي تعبر عن حيرتها وأسفها على حالة، تؤكد أنها لا تفهمها.. وتضيف:

-أتمنى أن أكون متفائلة.. لست كذلك.. ربما ينقصني الصبر والرؤية البعيدة (تضحك).. هل السبب نحن؟.. هل السبب الأمريكان؟ أن نظام صدام الذي لم أكن أتصور، في أي يوم، أن ينهار.. لقد انهار وانتهى الأمر.. في ذلك الوقت لم أكن متفائلة أيضاً، لكنني لا أعرف ماذا سيحصل غداً أو بعد غد، أو في السنة القادمة.. أخبرني أنت.. أنت صحافي وتعرف، أم تراك مثلي لا تعرف أيضاً؟

ويتحدث المحامي علاء الدين عبد خالد في الاتجاه نفسه، ويرى أن الوضع العراقي لا يزال مبهماً، ويشبهه حال نا باخرة تمخر في وسط أمواج متلاطمة، في بحر عريض، لا نعرف أين يكون المرسى، ومتى سنصل إليه؟.. ففي الجانب القانوني- وهذا اختصاصه- يشير علاء الدين إلى تجاوزات قانونية، في مجالات عديدة تقوم بها أحزاب وشخصيات متنفذة. ويرى أن الإنسان العراقي يعيش في ظل فقدان الإحساس بالأمان، فهو غير مطمئن على نفسه وبيته وماله بسبب عدم استقرار الحالة الأمنية.. غير أنه يعترف بالتحسن الملموس للناحية المعاشية، ولاسيما لقطاع الموظفين، ويبارك حرية التعبير المتاحة عن الرأي ويعدها أفضل ما تحقق منذ سقوط نظام صدام أو احتلال العراق.

وعلى نقيض الرأيين السابقين يطل عضو قيادة هيئة ديالى للحزب الشيوعي السيد جمعة ذياب الجبوري على الخريطة السياسية العراقية من زاوية أخرى، مغايرة، فيقول: هناك انفلات أمني، صحيح.. وهناك وضع اقتصادي سيئ لشرائح من المجتمع، صحيح.. لكن هناك انفراجاً وتقدماً نحو الأحسن، فالأحزاب تتحرك بحرية واسعة، والشعب يتمتع بحق إبداء الرأي والكلام، ولا شك أن المشاكل التي ورثناها من العهد السابق، والتي استجدت بعد التغيير ما زالت عالقة، لكن باستطاعة العراقيين حلها.

مؤاخذات

يثني السيد غانم نوري (مساعد مختبر طبي.. يكتب في الصحف أحياناً) على هذا الكم الهائل من الصحف التي راحت تصدر منذ الإطاحة بنظام صدام ويعده دليل عافية وتعبيراً عن حرية الرأي، غير أنه يأخذ على الأحزاب عدم قدرتها على الوصول إلى المجتمع وافتقارها إلى الحسابات المنطقية، وعدم وضوح رؤيتها بشأن المستقبل.. ويأخذ على مجلس الحكم ضبابية موقفه، وتشابك سلطته مع سلطة التحالف، ويرى أن ثمة الناس به راحت تتزعزع بسبب عدم سيطرته على الوضع الأمني وافتقاره إلى الآليات التي تمكنه من التحكم بالواقع.. ويأخذ على سلطة التحالف تجريبيتها التي تفشل أحياناً فندفع نحن الثمن. وإن سوء استخدامها لسلطتها سبب أساس في انتشار الإرهاب وما يحصل من تفجيرات. وكذلك عدم شفافيتها في بث المعلومات عن الإرهابيين الذين يتم القبض عليهم.

ويقول السيد غانم إن هذه السلطة تباعد ما بين السطور لكي تملأ الفراغات على وفق مصالحها وأهوائها، ولا يجد حلاً إلا بانتهاء الاحتلال وتوافق الأحزاب في سياستها للخروج من هذه الأزمة.

وإذا كان للسيد نوري مؤاخذاته على مجلس الحكم، كما نوهنا آنفاً فإن السيد رباح السعدي- بستاني وصاحب محل وممثل مسرحي سابق- يعد مجلس الحكم خير ما جاد به الشعب العراقي في تاريخه الحديث. فشخصياته مثقفة ومؤهلة لقيادة بلدنا المتعب بسبب سياسات النظام السابق. ويرى أن الوضع العام يسير نحو الأحسن، وأن هناك استقراراً نسبياً الآن بالقياس إلى الأشهر الأولى- ما بعد عملية التغيير- وهو متفائل حول المستقبل.. يقول:

-كنا في بئر مظلم، لا نبصر سوى بصيص صغير من الضوء في الخارج، ولا ندري أين هو، وعلى وجه التحديد، وكيف نصل إليه؟ لقد عشنا سنوات القهر والذل والإحباط والهوان، واليوم خرجنا من ذلك البئر، والحمد لله.

أما بخصوص الإرهاب فهو حقير في نظري إذ على أي مبدأ أو دين يفجر شخص ما نفسه ليقتل العراقيين الأبرياء؟ إن تلك الأعمال دموية، وبلا هدف سوى الإمعان في القتل.. ولا شك أن الإرهاب سينتهي بجهود الخيرين من أبناء شعبنا.

تفتحت عيوننا

تتساءل الآنسة لمياء علي (موظفة) عن جدوى التغيير إن لم يكن هناك تحول حقيقي في أفكار الناس. وتقول: انظر إلى أين وصل العالم، وأين نحن؟ لقد تفتحت عيوننا الآن بفضل الفضائيات، فطوال عقود بقينا لا ندري ماذا يجري خلف الحدود؟!

وتضع لمياء ثقتها بالمستقبل وإمكانات العراقيين، -نحن شعب موهوب وذكي، وربما تكون هذه فرصتنا النادرة لإعادة الأمور إلى نصابها.

وإذا كانت فاتن عبد الرحمن- طالبة جامعية- تؤكد أن لا شيء إيجابي قد حصل خلال سنة وأن ما نراه ليس سوى فوضى. فإن أسعد عواد- طالب جامعي أيضاً- له رأي مخالف:

-أخيراً تنفسنا هواء الحرية.. لقد انتهت سنوات الخوف، وأعتقد أن مشكلة المشاكل الآن هي البطالة.. ينبغي على مجلس الحكم أن يجعل هذه المشكلة نصب عينه بشكل دائم. فحين يعمل الناس سيسير كل شيء على ما يرام.

وهكذا، ينظر الدكتور أحمد خضير العزاوي- نقيب أطباء ديالى:

-بشكل عام، الأمور تسير نحو الأحسن.. الناس الآن أكثر وعياً، وبدأوا يتقبلون شيئاً اسمه تعددية الأحزاب والأفكار ويشيدون بالجوانب الإيجابية لعمل تلك الأحزاب وعمل المنظمات غير الحكومية، ويطالبونها بدور أكبر.. إذن عليها أن تكون أكثر فاعلية، وأن تسهم في تطوير المجتمع من خلال إقامة نشاطات مثل فتح دورات في مجالات الحاسوب والانترنت واللغات والعلوم المختلفة لكي يشعر المواطن أن هذه الأحزاب والمنظمات وجدت من أجل الصالح العام وليس بدوافع المصالح الخاصة.

وعن المجال الصحي يقول الدكتور أحمد:

-طرأ تحسن ملموس على دخول العاملين، ولذا فإنهم يقومون بأداء أفضل من السابق. ونحن بانتظار الجديد من ناحية توفير المستلزمات الضرورية لعملنا.

ويلاحظ مزاحم علوان لطيف مدير مكتب إعلانات. أن حركة السوق توسعت، وشرائح اجتماعية عديدة صار حالها أفضل من ذي قبل، ولا سيما الموظفون، فارتفعت قدرتهم الشرائية. كما أن تحسناً نسبياً قد حصل في مجالات الخدمات الصحية والاتصالات، وقلت نسبة الجريمة إلى حد كبير.

كان الشارع بعد سقوط صدام مباشرة (والكلام للسيد مزاحم) لا يطاق إلا أن الحوادث الإجرامية تراجعت، ولذا نستطيع التحرك بحرية أكبر.. وخلال الأشهر الأولى من العهد الجديد لم تكن نشاطات الأحزاب ظاهرة للعيان.. الآن اختلف الأمر وبات تأثيرها في الوسط الاجتماعي محسوساً. وكذلك صار واضحاً دور المثقفين. وأصبح المواطن يتقبل التغيير باتجاه مرحلة جديدة، وبناء دولة جديدة.

مشاكل معلقة

وفي مقابل تجاوز الوضع السياسي أكثر الصعوبات خطورة، من قبيل الفتن الطائفية والعرقية، فإن مشاكل كثيرة لا تزال معلقة لم تجد لها حلاً بحسب وجهة نظر السيد فيصل عباس النشد (عقيد في الجيش العراقي السابق):

-لم يحقق مجلس الحكم أشياء كبيرة، ودوره بقي محدوداً. فما زالت هناك مشكلة البطالة والخدمات العامة، ومشاكل المتقاعدين وموظفي الوزارات المنحلة ومنها الجيش، وهذا واحد من أسباب تفاقم الإرهاب والأعمال المسلحة.. كان يجب أن يضعوا حلاً لهذا الأمر الذي يفكر به حتى الناس البسطاء فكيف بمن هم في سدة الحكم.. وأسوأ ما يحصل الآن هو مداهمات الأمريكان للبيوت واعتقالهم الأبرياء، وهذا أيضاً يدفع إلى التذمر والإرهاب.

ويقول السيد النشد، إن من العلامات المفرحة في العهد الجديد تشكيل مؤسسات المجتمع المدني، وعقد المؤتمرات والندوات لتكريس فكرة الديمقراطية والتعددية.

فيما يطالب السيد محمد بهجت- بكالوريوس علوم الحياة- الأحزاب بنبذ الجمود العقائدي ومحاربة كل ما من شأنه توفير الأرضية لدكتاتورية جديدة، وإشاعة روح الحوار وتقبل الآخر المختلف، والتعايش معه وترسيخ مبدأ المحبة والتسامح.

أشعل شمعة

أخيراً تقول مديحة عدنان- خريجة أكاديمية الفنون، وربة بيت حالياً:

-علينا أن نصبر قليلاً لنرى حقيقة التغيير.. مع الأسف هناك من يستعجل الأمور. وهناك من يتشكى دائماً، ويشكك بكل خطوة.. من ناحية، أنا أقول، حقهم.. لقد قلسوا أكثر أو يريدون أشياء ملموسة بعد ما شبعوا وعوداً في العهد السابق، ولكن يجب أن ينظروا إلى المستقبل بتفاؤل وأن يسهموا في بنائه.. الآن عندنا دستور مؤقت وعندنا أحزاب وصحف حرة ومقبلون على إنهاء الاحتلال فلماذا التشاؤم؟.. أشعل شمعة بدل أن تلعن الظلام.. هذا مثل ياباني قديم.

-مثل صيني.

-صيني أو ياباني أو هندي.. لا يهم.. المهم المعنى.